كيسنجر يلتقط عناصر التعقيد القائمة في الموقف، ليبدأ بجولاته المكوكية على عواصم المنطقة، في نطاق سياسة «الخطوة ـ خطوة» التي نجحت في التوصل الى اتفاقية بين مصر واسرائيل عرفت باسم اتفاقية «فك الاشتباك الاول» (١٨/١/١٩٧٤)، وتوقيع اتفاقية مماثلة بين سوريا واسرائيل في ٣٠/٥/١٩٧٤؛ ثمّ توقيع اتفاقية «فك الاشتباك الثاني» بين مصر واسرائيل في ١/٩/١٩٧٥.

أُفول نجم المؤتمر الدولي

هذه الاتفاقيات تمّت، من الناحية الشكلية، في اطار مؤتمر جنيف؛ لكنها، في الواقع، كانت احتكاراً اميركياً للتسوية وضعت الاتحاد السوفياتي، من الناحية الفعلية، في موقع الذي يتلقى المعلومات التي توفرها له واشنطن حول سير مفاوضاتها في الشرق الاوسط.

منذ اللحظة الاولى لتوقيع اتفاقية فك الاشتباك على الجبهة المصرية ادرك السوفيات أن مؤتمر جنيف افضى الى غطاء دولي لدبلوماسية كيسنجر. فالبيان الذي اصدرته كل من مصر واسرائيل، عقب توقيع الاتفاقية، كان واضحاً بصورة قاطعة في هذا الشأن، حيث جاء فيه انه «طبقاً لقرار مؤتمر جنيف، فان حكومتي مصر واسرائيل، بمساعدة حكومة الولايات المتحدة، قد توصلتا الى اتفاق لفك الاشتباك بين قواتهما المسلّحة... وقد طلبت الاطراف من قائد قوات الطوارىء التابعة للامم المتحدة أن يشهد التوقيع»[١٥]. ان النص الصريح «بمساعدة الولايات المتحدة»، ثمّ الاشارة الى دور ممثل الامم المتحدة باعتباره «يشهد التوقيع» فقط، يقدم دلالة لا لبس فيها على أن الولايات المتحدة بدأت، فعلاً، تحل محل الامم المتحدة، وان الاتحاد السوفياتي بات مستبعداً. وعلى الجبهة الشرقية، تمّ الشيء ذاته تقريباً.

والواقع ان مؤتمر جنيف الذي كان ينبغي أن يبحث في التسوية في المنطقة بشكل شامل كان يتناقض، كلياً، مع اسلوب «الخطوة ـ خطوة» الكيسنجري. اذ لم يكن هذا الاسلوب عارضاً في السياسة الاميركية، بل كان، اساساً، نابعاً من طريقة الادارة الاميركية في تحقيق اهدافها في المنطقة. فلم يكن هناك ما يمنع، بالنسبة الى الولايات المتحدة، أن يكون مؤتمر جنيف ملتقى اللجان العسكرية التي توقع على تفاصيل اتفاقيات فك الاشتباك وما شابه ذلك؛ ولم يكن هناك ما يمنع، ايضاً، من ان اي انعقاد فعلي للمؤتمر قد يؤدي به الى الفشل، حيث تواجهه ظروف تكتيكية بالغة التعقيد والاهمية تجعله غير قابل لتقديم حلول سريعة في لحظة كان النظام المصري يحسم امره بانتهاج اسلوب «الخطوة ـ خطوة» الاكثر نجاعة من وجهة نظره، بكل ما يعنيه ذلك من ارتباطه، ليس فقط بمبادرات السلام الاميركية بصورة عامة، بل، وايضاً، بالاساليب التكتيكية الاميركية، وذلك في مواجهة ارتباط اسلوب مؤتمر جنيف بالاتحاد السوفياتي.

لقد كان الاسلوب الاميركي وثيق الارتباط بما كان يجرى في المنطقة العربية، وفي مصر بصورة خاصة، من تحولات اقتصادية واجتماعية شاملة تدفع بالاقتراب نحو واشنطن وتترافق مع تدهور واضح للعلاقات السوفياتية ـ المصرية.

ان هذا الطريق، الذي تشكلت ملامحه الاولى باتفاقية «فك الاشتباك الاول»، كان حاسماً، تماماً، في اتفاقية «فك الاشتباك الثانية»، بينما كانت الشكوك والملاحظات السوفياتية على الاتفاقية الاولى تتحول، بدورها، الى هجوم سياسي عنيف على دبلوماسية كيسنجر، باعتبارها لن تؤدي، ابداً، الى حل القضايا الجوهرية، المطلوب حلها في اية تسوية سلمية في الشرق الاوسط. «وعشية قمة